السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام).. حين تكون الزوجة سكينةً للقلب وراحةً للروح

من أروع ما نُقل عن الحياة الزوجية للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء (عليهما السلام)، ذلك الحديث الذي يكشف عن عمق العلاقة الإنسانية والعاطفية التي جمعتهما، ويقدّم صورة مشرقة للزواج القائم على المحبة والاحترام والرحمة والسكينة النفسية.

فقد رُوي عن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال:

«فَوَ اللّهِ مَا أَغْضَبْتُهَا وَلا أَكْرَهْتُهَا عَلَى أَمْرٍ حَتّى قَبَضَهَا اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ وَلا أَغْضَبَتْنِي وَلا عَصَتْ لِي أَمْراً وَلَقَدْ كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا فَتَنْكَشِفُ عَنِّي الْهُمُومُ وَالأَحْزَانُ». [١]

إن هذا الحديث، على قصر عباراته، يحمل معاني تربوية واجتماعية ونفسية عميقة، ويكشف عن جوانب مضيئة من شخصية السيدة الزهراء (عليها السلام)، وعن طبيعة العلاقة الزوجية التي ينبغي أن تسود الأسرة المسلمة.

المحبة التي تقوم على الاحترام:

يبدأ الإمام علي (عليه السلام) حديثه بقوله:

«فوا ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر».

وهذه العبارة تكشف عن مبدأ أساسي في الحياة الزوجية، وهو أن العلاقة بين الزوجين لا ينبغي أن تقوم على فرض الإرادة أو استخدام السلطة، وإنما على الاحترام المتبادل ومراعاة المشاعر.

فالإمام علي (عليه السلام)، بما عُرف عنه من قوة وشجاعة وحزم، كان في بيته نموذجاً للرفق واللين وحسن المعاشرة.

لم يكن يرى في قوته مبرراً لإكراه زوجته، بل كان يراعي مشاعرها ويحفظ كرامتها.

وهنا تتجلى حقيقة مهمة، وهي أن قوة الرجل لا تُقاس بقدرته على فرض رأيه داخل الأسرة، وإنما بقدرته على ضبط نفسه، واحترام شريكة حياته، والتعامل معها بالحكمة والرحمة.

فالبيت الذي يسوده الاحترام يصبح أكثر استقراراً، ويمنح الزوجين شعوراً بالأمان النفسي والعاطفي.

التفاهم المتبادل أساس الاستقرار الأسري:

ثم يقول الإمام (عليه السلام):

«ولا أغضبتني، ولا عصت لي أمراً».

وهذه العبارة تكشف عن جانب آخر من شخصية السيدة الزهراء (عليها السلام)، وهو حرصها على التفاهم وحسن المعاشرة ومراعاة مشاعر زوجها.

فالعلاقة بين الإمام علي والسيدة الزهراء (عليهما السلام)، كما يصورها الحديث، لم تكن علاقة تقوم على طرف يعطي وآخر يأخذ، وإنما كانت علاقة متبادلة من الاحترام والمودة.

فكما كان الإمام علي يحرص على عدم إيذاء مشاعرها، كانت هي أيضاً تحرص على راحته واستقراره.

وهذا التبادل العاطفي هو أحد أهم أسرار نجاح الحياة الزوجية.

ولا يعني ذلك أن الحياة الزوجية الناجحة تخلو بالضرورة من اختلاف الآراء، فالاختلاف أمر طبيعي بين البشر، ولكن النجاح الحقيقي يتمثل في كيفية التعامل مع الاختلاف دون تجريح أو إهانة أو إكراه.

إن الزوجين اللذين يتقنان لغة الحوار والاحترام

يستطيعان تجاوز كثير من المشكلات قبل أن تتحول إلى خلافات عميقة.

السيدة الزهراء مصدر للسكينة النفسية:

هذه العبارة في هذا الحديث، ذات تأثير قوي في النفس:

«ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عني الهموم والأحزان».

إنها كلمات قليلة، لكنها تحمل عالماً واسعاً من المشاعر الإنسانية؛ فالإمام علي (عليه السلام)، الذي واجه المصاعب والتحديات، كان يجد في السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) مصدراً للراحة والطمأنينة.

ولم يقل إنه كان يحتاج إلى حديث طويل معها حتى تزول همومه، بل عبّر عن أثر مجرد النظر إليها.

وهذا التعبير يكشف عن عمق الارتباط العاطفي بينهما، حتى أصبح حضورها في حياته باعثاً على السكينة وتخفيف الأعباء النفسية.

ومن الناحية النفسية، فإن الإنسان حين يشعر بالأمان مع شخص يحبه ويثق به، قد يجد في حضوره وابتسامته وكلماته الطيبة ما يخفف عنه التوتر والقلق.

فالعلاقة الزوجية الناجحة ليست مجرد مشاركة في السكن والطعام والمسؤوليات، وإنما هي أيضاً مشاركة وجدانية تجعل كل طرف ملاذاً آمناً للطرف الآخر.

وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [٢]

فالسكينة ليست مجرد غياب المشكلات، بل هي حضور الطمأنينة والمودة والرحمة.

الزوجة ليست شريكة حياة فحسب، بل سند نفسي:

يكشف هذا الحديث عن بُعد مهم في العلاقة الزوجية، وهو الدعم النفسي والعاطفي.

فالإنسان قد يواجه خارج منزله ضغوطاً كثيرة، سواء في العمل أو العلاقات الاجتماعية أو المسؤوليات اليومية، ولكنه يحتاج حين يعود إلى بيته أن يجد من يستمع إليه ويفهمه ويخفف عنه.

وقد جسدت السيدة الزهراء (عليها السلام)، كما يصورها هذا الحديث، هذا المعنى في أسمى صوره.

كانت بالنسبة إلى الإمام علي (عليه السلام) أكثر من زوجة تشاركه شؤون الحياة؛ كانت موضع أنسه وطمأنينته.

وهنا ينبغي التأكيد على أن هذا الدور ليس مسؤولية الزوجة وحدها، بل هو مسؤولية متبادلة بين الزوجين.

فالزوجة تحتاج أيضاً إلى زوج يحتوي مشاعرها، ويقدّر تعبها، ويقف إلى جانبها في أوقات القلق والحزن.

ومن أجمل صور الزواج أن يشعر كل طرف بأن الآخر ليس عبئاً إضافياً على حياته، بل عوناً له على مواجهة أعبائها.

الحياة الزوجية لا تحتاج إلى الثراء بقدر حاجتها إلى المودة:

لم تكن حياة الإمام علي والسيدة الزهراء (عليهما السلام) حياة ترف ووفرة مادية.

فقد عُرفت حياتهما بالبساطة وتحمل أعباء المعيشة، ومع ذلك يقدم لنا الحديث صورة عن علاقة غنية بالمحبة والسكينة.

وهنا تظهر حقيقة اجتماعية مهمة: ليس كل بيت غني بيتاً سعيداً، وليس كل بيت محدود الدخل بيتاً تعيساً.

فالمال مهم لتوفير الاحتياجات الأساسية وتحقيق الاستقرار المعيشي، لكنه لا يستطيع وحده أن يصنع المودة أو يشتري الطمأنينة.

قد تتوافر في بعض المنازل وسائل الراحة المادية، بينما تفتقر إلى الحوار والاحترام والتقدير.

وفي المقابل، قد يعيش زوجان في ظروف مادية متواضعة، لكنهما يتمتعان بعلاقة دافئة تمنحهما الشعور بالأمان والرضا.

ولذلك فإن من أعظم ما يمكن أن يقدمه الزوجان لبعضهما ليس الهدايا المادية وحدها، بل حسن المعاملة، والكلمة الطيبة، والاهتمام الصادق، والتقدير المتبادل.

الاعتراف بالمحبة ليس ضعفاً:

من الجوانب الجميلة في هذا الحديث أن الإمام علياً (عليه السلام) عبّر بوضوح عن الأثر العاطفي الذي كانت تتركه السيدة الزهراء في نفسه.

فلم يجد حرجاً في أن يقول إن النظر إليها كان يزيل عنه الهموم والأحزان.

وهذه رسالة مهمة، خصوصاً في المجتمعات التي قد يتردد فيها بعض الرجال في التعبير عن مشاعرهم، ظناً منهم أن إظهار المحبة أو الحاجة العاطفية يتعارض مع القوة والرجولة.

إن الإمام علياً (عليه السلام)، وهو رمز للشجاعة والثبات، يقدم في هذا الحديث صورة أخرى للقوة الإنسانية، وهي القدرة على الحب والتقدير والوفاء.

فالتعبير عن المحبة لا ينتقص من مكانة الإنسان، بل يعكس نضجه العاطفي وصدق مشاعره.

والكلمة الطيبة بين الزوجين ليست أمراً ثانوياً، فقد تكون سبباً في إزالة حزن، أو تخفيف قلق، أو تجديد الأمل في يوم مليء بالتعب.

السيدة الزهراء، حضور يبقى بعد الرحيل:

إن في قول الإمام علي (عليه السلام): «حتى قبضها الله عز وجل» إشارة مؤثرة إلى أن هذا الحديث يستحضر حياة مشتركة انتهت برحيل السيدة الزهراء (عليها السلام).

ومن هنا يمكن قراءة كلماته بوصفها تعبيراً عن الوفاء واستحضار الذكريات الجميلة.

فهو لا يتحدث عن المواقف المادية أو تفاصيل الحياة اليومية، وإنما يستحضر أثرها في قلبه ونفسه.

وهذا يذكرنا بأن الإنسان حين يفقد عزيزاً عليه، فإن من أثمن ما يبقى في ذاكرته ليس ما امتلكه معه من أشياء، وإنما ما عاشه معه من مشاعر ومواقف.

تبقى الكلمة الطيبة، والابتسامة الصادقة، والرحمة في أوقات الشدة، والوقوف إلى جانب الآخر حين تضيق به الحياة.

وهكذا يصبح حسن العشرة أثراً إنسانياً يمتد حتى بعد الرحيل.

ما الذي يمكن أن تتعلمه الأسر المعاصرة من هذا الحديث؟

إن هذا الحديث ليس مجرد وصف تاريخي لعلاقة زوجية عظيمة، وإنما يحمل رسالة تربوية صالحة لكل زمان.

فكثير من المشكلات الزوجية المعاصرة لا تبدأ من قضايا كبيرة، بل من تراكم مواقف صغيرة، مثل تجاهل

المشاعر، أو رفع الصوت، أو الاستهانة برأي الطرف الآخر، أو غياب كلمات التقدير.

ومن خلال التأمل في هذا الحديث يمكن استخلاص عدد من المبادئ العملية:

1. احترام المشاعر: ينبغي أن يحرص كل طرف على تجنب الكلمات والتصرفات التي تجرح شريك حياته.

2. الابتعاد عن الإكراه: القرارات الأسرية تكون أكثر استقراراً عندما تُبنى على الحوار والتفاهم.

3. التقدير المتبادل: يحتاج الزوجان إلى الشعور بأن جهودهما وتضحياتهما محل اهتمام وامتنان.

4. الدعم النفسي: من المهم أن يجد كل طرف في الآخر من يخفف عنه ضغوط الحياة، لا من يزيدها.

5. إظهار المودة: لا ينبغي أن تبقى المحبة مجرد شعور داخلي، بل يجب أن تظهر في الكلمات والتصرفات اليومية.

6. إدارة الخلافات بحكمة: الاختلاف لا يعني فشل العلاقة، وإنما تتحدد جودة العلاقة بطريقة التعامل معه.

وهذه المبادئ لا تخص الزوجين وحدهما، بل تنعكس آثارها على الأبناء أيضاً.

فالطفل الذي ينشأ في بيئة أسرية يسودها الاحترام والطمأنينة يتعلم من والديه أساليب الحوار والتعاطف وضبط الانفعالات، ويكتسب نموذجاً إيجابياً للعلاقات الإنسانية.

رسالة الحديث : حين يصبح البيت موطناً للسكينة

إن حديث الإمام علي (عليه السلام) عن السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) يقدم نموذجاً أخلاقياً وإنسانياً عميقاً للعلاقة الزوجية.

فهو حديث عن الاحترام قبل السلطة، وعن الرحمة قبل المطالبة بالحقوق، وعن السكينة قبل المظاهر المادية، وعن المحبة التي تظهر في أدق تفاصيل الحياة.

ولعل أبلغ ما يمكن أن نتعلمه من هذا الحديث أن الزواج الناجح لا يُقاس فقط بعدد السنوات التي يقضيها الزوجان معاً، وإنما بمقدار الرحمة والطمأنينة التي يمنحها كل منهما للآخر خلال تلك السنوات.

ما أجمل أن يكون الزوج لزوجته موطن أمان، وأن تكون الزوجة لزوجها مصدر سكينة، وأن يتحول البيت من مجرد مكان للسكن إلى ملاذ للروح والقلب.

وما أعظم تلك العلاقة التي يستطيع أحد طرفيها أن يقول عن الآخر، بكل صدق ومحبة:

«ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عني الهموم والأحزان».

سلام ا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى السيدة فاطمة الزهراء، وعلى تلك الحياة التي بقيت كلماتها مدرسة في المودة والرحمة وحسن العشرة.